أزمة التنمية في العالم الإسلامي ـ قراءة في فكر مالك بن نبي-

أ.الفتني صديقة، جامعة محمد خيضر بسكرة- الجزائر

The development crisis in the Islamic world - a reading in the thought of Malik binnabi -

Elfetni sadika, Researcher, University of mohamed khider biskra- Algeria

ملخص: نهدف خلال هذه الدراسة النظرية إلى البحث في موضوع أزمة التنمية في العالم الإسلامي وفق تصور العالم الجزائري مالك بن نبي، من حيث التشخيص واقتراح الحلول، ولتحقيق هذا الهدف استخدمنا المنهج التحليلي وذلك من خلال قراءة وتحليل وتفسير أفكاره حول موضوع أزمة التنمية بالعالم الإسلامي.

وخلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج، لعل أبرزها أن أزمة التنمية في العالم الإسلامي حسب مالك بن نبي ساهمت في وجودها عدة عوامل داخلية وخارجية، كما تتداخل فيها عدة عوامل على المستوى الماكروسوسيولوجي - الأنظمة الاجتماعية -، والمستوى الميكروسوسيولوجي - الأفراد -، وعلى هذا الأساس تتطلب التنمية ضرورة الاستثمار في العنصر البشري والاهتمام بالعمل الجماعي، مع الاعتماد على مرجعية تأخذ بعين الاعتبار خصوصية الدول المسلمة، والتزامها بقواعد الدين الإسلامي ومبادئه.

وأخيرا قمنا بطرح جملة من التوصيات لعل أبرزها ضرورة التعريف بشخصية مالك بن نبي والاهتمام بأفكاره من خلال تنظيم ملتقيات علمية سواء على مستوى الجامعات أو غيرها من المؤسسات الرسمية الأخرى، إضافة إلى ضرورة توفر إرادة سياسية ومحاولات حقيقية من أجل تطبيق أفكاره التنموية والاستفادة منها فعليا.

الكلمات المفتاحية: التنمية، القابلية للاستعمار، التكديس، الفكرة الدينية، العلاقات الاجتماعية.

Abstract: This theoretical study deals with the topic of development crisis in the Islamic world as envisaged by the Algerian intellectual "Malik Binnabi" in terms of determination and proposal of solutions. To this end ,we have used the analytical approach through reading and

analyzing and interpreting his ideas about the topic of development crisis in the Islamic world.

The most important result reached by this study is that : "Malik Binnabi" argues thatthe development crisis in the Islamic world is exacerbated by both external and internal factors ,in addition of other factors on the macro sociological level – social systems – and the micro sociological level – individuals- As such, the development requires investing in the human resources and giving more attention to the collective work ,and relying on a reference which takes into account the specificity of Islamic nations and their adherence to the Islam's rules.

Finally, we have suggested a set of recommendations like the necessity of identifying "Malik Binnabi" and giving more interest to his ideas by organizing scientific meetings in universities or other official organizations ,in additions to the need for a political will and real efforts in order to practice his ideas and benefiting from it really.

Key words: The development, Colonisability , accumulation ,the religious idea, social relations.

مقدمة

يعتبر موضوع التنمية من المواضيع التي نالت اهتماما كبيرا من قبل الباحثين باختلاف تخصصاتهم واتجاهاتهم، خاصة وأن التنمية تعد هدفا تسعى مختلف دول العالم لتحقيقه بما تحتويه من أبعاد سياسية، اجتماعية، اقتصادية، بيئية وأخلاقية، وقد ظهرت بذلك العديد من النظريات والمقاربات التي تناولت موضوع التنمية، فسارعت الدول في تطبيق النماذج المقترحة والتي لاقت نجاحا على المستوى البيئة الاجتماعية التي انطلقت منها وطبقت فيها.

ويعتبر موضوع التنمية أيضا ذا أهمية كبيرة بالنسبة لدول العالم الإسلامي التي لازالت لهذا اليوم تعاني من العديد من الأزمات والمشاكل الداخلية التي حالت دون تحقيقها للتنمية المنشودة، كما باءت كل محاولات العالم الإسلامي بالفشل جراء اعتمادها على استعارة نماذج تنموية من دول غربية، والواقع يثبت ذلك فلا زالت دول العالم الإسلامي تتخبط في أزمات التنمية إلى اليوم.

وفي هذا الطرح سنركز على أبرز المفكرين في مجال الحضارة على مستوى العالم الإسلامي والعربي، وهو المفكر والعالم الجزائري مالك بن نبي، مركزين على طرحه النظري وتناوله لموضوع أزمة التنمية التي اجتاحت العالم الإسلامي بعدما كانت الحضارة الإسلامية من أعرق

الحضارات وأكثرها تطورا قديما. "فقد كان مالك بن نبي مفكر حضارة؛ دارسا لمشكلاتها، متأملا في أبعادها، حيث لا يمكن لأي باحث في الفكر الإسلامي المعاصر، وخاصة في الدراسات الحضارية، أن يتجاهل دراسات مالك بن نبي الذي كرس حياته لتحليل الظاهرة الحضارية محاولا فهم أسباب النشأة والقيام وعوامل الانحطاط والزوال، فقد درس الظاهرة الحضارية كمشكلة بأبعادها المختلفة، محاولا بمنهج تحليلي تركيبي نقدي أن يفكك عناصرها ويضع منهجا لفهمها ويحل إشكالاتها" (البشير قلاتي، 2016، ص 381).

إشكالية الدراسة:

تشكل أزمة التنمية أحد أهم التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية اليوم؛ حيث تعاني مجتمعاتنا واقع تخلف كبير على جميع المستويات، زاد من هوة تخلفه وتأخره عن اللحاق بركب التقدم الحضاري العالمي، وفي إطار مقاربات مالك بن نبي حول مشكلات الحضارة فإنه تتلخص إشكالية هذه الدراسة في محاولة الوقوف على أهم العوامل التي ساهمت في ظهور الأزمة التنموية في العالم الإسلامي، وكذا الوقوف على أهم الطرائق والوسائل الكفيلة بالخروج منها وفق منظور وأفكار مالك بن نبي، وبالتالي سنعمل على دراسة هذه الإشكالية من خلال الإجابة على الأسئلة التالية:

-كيف فسر مالك بن نبي أسباب أزمة التنمية في العالم الإسلامي؟

-ما هي أهم المعطيات التي اقترحها في سبيل الخروج من هذه الأزمة؟

أهداف الدراسة: يتجلى الهدف من هذه الدراسة من خلال تسليط الضوء على النقاط التالية:

-التعرف على أسباب أزمة التنمية في العالم الإسلامي من منظور العالم مالك بن نبي.

-التعرف على آليات معالجة أزمة التنمية في العالم الإسلامي وفق ما يقترحه بن نبي.

أهمية الدراسة: تتجسد أهمية الدراسة في مدى الإضافة التي تقدمها سواء على الصعيد العلمي أو المجتمعي، وسواء على مستوى الموضوع الذي تتناوله أو النتائج التي توصلت إليها، وعليه تكمن أهمية دراستنا في الآتي:

- تأتي أهمية هذه الدراسة من أهمية موضوع التنمية الذي تتناوله، وكذا أهمية الفكر الذي يطرحه فيلسوف الحضارة مالك بن نبي من حيث معالجته لمشكلة التنمية في العالم الإسلامي.

- كما وتأتي أهمية هذه الدراسة من خلال استغلال نتائجها الكيفية التي تمكننا من التعرف على أسباب أزمة التنمية في عالمنا الإسلامي وكذا التعرف على أبرز الآليات التي يمكن اعتمادها من أجل الخروج من هذه الأزمة.

منهج الدراسة: سنعتمد في معالجة إشكالية الدراسة والإجابة على تساؤلاتها على المنهج التحليلي، وذلك بعد جمع المعلومات و تحليلها وتفسيرها وكذا استنباط النتائج فيما يتعلق بموضوع أزمة التنمية في العالم الإسلامي وفق تصور مالك بن نبي.

المحور الأول: التعريف بالعالم الجزائري مالك بن نبي:

اتفق الكثير من الدراسين لفكر مالك بن نبي على انه أحد عباقرة الفكر العربي الحديث بلا منازع ، ولد سنة 1905م بقسنطينة من أسرة مسلمة محافظة، تلك المدينة الممزوجة بالثقافتين العربية الإسلامية والثقافة الغربية، حيث استطاع أن يستفيد من هاتين الحضارتين كما استفاد من علمائها أمثال الشيخ عبد المجيد، والشيخ مولود، والشيخ بن باديس، وهذه الشخصيات البارزة أصحاب العمائم وأصحاب الانتماء، وجد فيهم روافد الحضارة الإسلامية حتى قضى حياته مجاهدا في سبيلها، ومن جانب آخر كان متأثرا بالمدرسة الفرنسية لعلاقتها الوطيدة بأساتذته.

بدأ حياته في التأليف في بداية الأربعينيات حيث أعاد كتابة مخطوطه الأول **المعجزة القرآنية** الذي احرق بفعل الحرب العالمية الثانية والغارات الجوية، ونشر كمذكرة في الجزائر سنة 1946، ليتوالى عمل التأليف والجهد الفكري بنشر الكتاب الذي ضمن شهرته وهو شروط الحضارة.

عرف الترحال بين دول المشرق فزار القاهرة ولبنان حيث ألقى فيهما عند محاضرات وندوات وفي أواخر 1956م، ساهم بتعريف كفاح الشعب الجزائري، وقام بنشر دراسة بعنوان **"نجدة الجزائر"**سنة 1957، ثم وجه ملتقيات أيديولوجية للطلبة المسلمين، من 1957م إلى 1962م، توفي في 31 أكتوبر 1973م، وترك ورائه مجموعة من المؤلفات التي تناولت قضايا العالم المتخلف، وألف سلسلة من الكتب تحت عنوان مشكلات الحضارة(يوسف يحياوي، 2017، ص 208).

المحور الثاني: تفسير مالك بن نبي لأزمة التنمية في العالم الإسلامي: من خلال تشخيص وتحليل مالك بن نبي لواقع المجتمعات الإسلامية فقد توصل إلى جملة من المبررات والتفسيرات التي جعلت العالم الإسلامي حبيس التخلف، ويعاني من أزمة التنمية في كافة المجالات الاجتماعية، وهو يرجع ذلك لعدة أسبابها لعل أبرزها يتمثل في الآتي:

1- القابلية للاستعمار: أشار مالك بن نبي إلى مفهوم القابلية للاستعمار كمفهوم تحليلي لواقع المسلمين، ما بعد الموحدين عموما، وذلك بسبب التخلف الذي عم في البلاد، فقد استكان المجتمع إلى الراحة، ولا ترجع هذه الحالة الانهزامية إلى الاستعمار، بل هناك كما يقول بن نبي عامل آخر ينبعث من داخل الفرد، الذي يقبل على نفسه تلك الصبغة، والسير في تلك الحدود الضيقة التي رسمها الاستعمار، وحدد له فيها حركاته وأفكاره وحياته. وانعكست عليه في مختلف الأبعاد الأخلاقية، النفسية، العقلية، الاجتماعية والاقتصادية(ميهوب العابد، 2012، ص 139)، فقد كان غرض الاستعمار أن يترك في ميدان الثقافة في العالم الإسلامي، جرحى وصرعى لا تقوم لهم

قائمة، وينصب في أرجائه عقولا لا تدرك إلا ما يريد لها هو أن تعرف، وقد ظفر العدو فينا بما كان ينبغي ويريد(مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، 2000، ص 21)، والمجتمع الإسلامي بالتحديد أصبح يعاني من انتقام النماذج المثالية لعالمه الثقافي الخاص به من ناحية، ومن ناحية أخرى من الانتقام الرهيب الذي تصبه الأفكار التي استعارها من أوروبا، دون أن يراعي الشروط التي تحفظ قيمتها الاجتماعية، وقد أورث ذلك تدهورا في قيمة الأفكار الموروثة، وتدهورا في قيمة الأفكار المكتسبة، وقد حملا ضررا كبيرا في نمو العالم الإسلامي أخلاقيا وماديا (مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 2002، ص 159)، فمفهوم القابلية للاستعمار يشير إلى حالة نفسية تتميز بها المجتمعات المسلمة، توضح الخضوع والانصياع التام أمام نماذج وأيديولوجيات خارجية، تجعل أفراد المجتمعات المسلمة يستصغرون أنفسهم أمامها، فيظنون دوما أنهم غير قادرين على الإنتاج والمنافسة والتقدم، في المقابل هم مولعون بالدول الغربية ويقتنعون بكل أفكارها ومنجزاتها، بل ويعتبرون كل منجزاتها مثالية، وهذه الأفكار والقناعات الناتجة عن القابلية للاستعمار فعلا لن تشجع العالم الإسلامي على المقاومة والنهوض من جديد، وبناء أنفسهم بأنفسهم، طالما هم مجرد تابعين، ومستهلكين غير منتجين، فالمغلوب دوما مولع بتقليد الغالب على حد تعبير ابن خلدون، والقابلية للاستعمار تعجز الأفراد، مما ينعكس طوعيا على نشاطهم الفكري والعملي، وبالتالي التأثير على مجتمعهم الذي يبقى حبيس التخلف.

وتعتبر الأفكار المميتة التي تولدت عن خذلان المسلمين للأفكار المطبوعة، وقد أطلق عليها بن نبي اسم الأفكار المميتة أو القاتلة ذلك لما تحمله من عدم التناسق والتجانس بين الذهنيات، حيث يتم نقلها من إطارها الثقافي للعالم الغربي لتزرع في أوساط مجتمعاتنا، وتلقن لعقول أبنائنا مما يؤدي إلى تسمم العقول واضطرابها حيث يولد حالة من الاضطراب كما يشبه حالة التجلط التي تحدث لجسم يحقن بدم من فصيلة مختلفة, فتؤدي الأفكار المميتة إلى حالة الشلل الذهني وحالات الاستسلام وربما اليأس وهو مظهر القابلية للاستعمار.

أما الأفكار المميتة فتؤدي إلى حالة من الاغتراب والتبعية والشعور بالنقص والقصور والارتماء في أحضان الأخر في أفكاره وسلوكه، وهو من أشد مظاهر الاستعمار، وكان للأفكار المميتة أثارها على عقل المسلم فيما يعانيه من أزمة متعددة الجوانب حيث المشكل يكمن في العقل نفسه، ومن ذلك أصبح أسير السطحيات وكثير التسرع في الأحكام، حتى أضحى عاجزا عن إدراك حقيقة الظواهر فغفل عن فهم آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة، فاكتفي باستظهارها شكليا دون فهم محتواها. لما اصطدم بحضارة الغرب انشغل بمعرفة الحصول عليها دون أن يكلف نفسه عناء البحث في كيفية إبداعها(فازية بوثلجة، 2019، ص 58). ويطغى بشكل جلي على المجتمعات الإسلامية شيوع الأفكار الميتة والمميتة، فمن بين مظاهر القابلية للاستعمار أن تأخذ وتستعير المجتمعات المسلمة نماذج ثقافية وفكرية من البلدان الغربية، دونما تقنين وتمحيص فالبيئة الاجتماعية الإسلامية تختلف كل الاختلاف عن البيئة الغربية، وباستعارتها لأنماط ثقافية غربية فإنها بذلك قد استعارت مجرد أفكار ميتة تنتهي صلاحيتها عند بداية استخدامها في بيئة غير بيئتها الأصلية، أما بالنسبة للأفكار المميتة فهي الأفكار الشائعة في البلدان المسلمة، والتي

خرجت عن مسارها الحقيقي الأصيل، وأصبحت تأثر على عقلية الفرد المسلم حيث أنها تساهم في ظهور الكثير من التناقضات الداخلية، والتي تساهم بشكل أو بآخر في تعطيل المجتمع وانحرافه عن الوجهة الحقيقية لبناء الحضارة، فهناك علاقة جد وطيدة بين الأفكار الميتة والمميتة، فعندما تطغى الأفكار الميتة على المجتمعات الإسلامية، تساهم في انحراف هذه المجتمعات عن أصولها وأفكارها الثابتة فتنتج بذلك أفكار مميتة تصارع الأفكار الأصيلة المحلية بالمجتمعات، وتصبح بذلك المجتمعات الإسلامية في تحدي حقيقي يتأرجح بين الأفكار الميتة الخارجية، والأفكار المميتة الداخلية.

ويظهر أن مالك بن نبي لم يكن رافضا تماما للأفكار الغربية، بل أنه يعيب اهتمام المثقفين فقط بقشورها وبأفكارها الميتة دون النافعة، وهذا ما أثار تساؤله، فهو لم يستغرب من حقيقة وجود أفكار ميتة في الثقافة الغربية، بقدر استغرابه من ميل المثقفين والنخبة المسلمة نحو هذه الأفكار بالضبط، وهو يعتبر أن ما يحدد خيار هذه النخبة لا يكمن في مضمون الثقافة الغربية، بل في مضمون الوعي الذي حدد خيارا لهذه النخبة بإرادة منها أو بغير إرادة.

وهو يرى أن هناك خيار لأن الثقافة الغربية ليست كلها أفكار ميتة لأنها ما تزال تبعث الحياة في حضارة تنظم حتى الآن مصير العالم، وليس العنصر الميت في تلك الثقافة الغربية سوى نوع من النفايات، وإذا كان العالم الإسلامي يأخذ من هذه الحضارة إلا الأفكار الميتة، فلا ينبغي أن يلوم أحد غيره، لأن مثل هذه الأفكار لا تفرز إلا التعفن، والعقول السطحية في العالم الإسلامي تخلط بينها وبين الثقافة الغربية (مالك بن نبي، تأملات، 2002، ص ص 149 - 150)، فلا يمكن أن نعيب على مجمل الثقافة الغربية، بل أن نختار ما نستعيره منها، وهذا هو الإشكال، فالمجتمعات المسلمة لا تأخذ سوى القشور دون إعطاء أي اهتمام للأفكار المفيدة فعلا والمناسبة لنا كمسلمين، والتي يمكن تكييفها مع خصوصية المجتمعات الإسلامية، حيث توجد الكثير من الأفكار التي لا تتناقض مع الواقع الاجتماعي والثقافي للمجتمعات الإسلامي وهي الجوانب التي يمكن أن نستفيد منها حقا، فيمكن للمجتمعات الإسلامية أن تستفيد من تجارب العالم الغربي في مختلف الميادين الاجتماعية، بحيث يمكن جعلها كنقطة انطلاق نبدأ فيها من حيث انتهى العالم الغربي، أو أن نحذو حذوه ونتبع نهجه بما يتلاءم مع خصوصية المجتمعات الإسلامية.

2- تمزق شبكة العلاقات الاجتماعية: وهي حالة تنتج عن سيادة النزعة الفردانية التي عكست معيار القيام، وتعارض مصالح الأفراد والجماعات فيما بينها، الذي أحدث الاصطدام الداخلي وقضي على العمل التكاملي الجاد وأدى إلى إهدار الكثير من الطاقات الاجتماعية، وصرفها فيما لا جدوى منه (ميهوب العابد،2012، ص 144)، وتتفكك شبكة العلاقات الاجتماعية بمجرد ظهور أعراض التخلف، وتبدأ هذه الإنفكاكات في التطور إلى أن تأخذ صورة العلة التي تنخر تماسك الجسد الاجتماعي، وبما أن الأفكار تساهم بشكل فعال في عمليات البناء فإن فعالياتها تتوقف على سلامة ومتانة شبكة العلاقات الاجتماعية(يوسف أزروال، 2019، ص 51).

وعندما تتفشى في المجتمع ظاهرة الانفصال بين الأفراد، ويحاول كل إنسان العمل أو التفكير أو التخطيط بمفرده، حينها يمكن أن نعلم سبب الداء: استيلاء"الأنا" وتحكمها في الفرد، وبالتالي تغييب الروح الجماعية التي كانت سائدة في فترة من الفترات في الشعوب الإسلامية والتي كانت أساس كل نشاط أو عمل، وبغياب الروح الجماعية تفسد العلاقات الاجتماعية، "والعلاقات الاجتماعية تكون فاسدة عندما تصاب الذوات بالتضخم، فيصبح العمل الجماعي المشترك صعبا أو مستحيلا، وعقدة "الأنا" أصبحت سيطرتها تفوق كل عقدة، واكتسحت كل المجالات لا المجال الاجتماعي وحده، فنحن حين نقوم بدراسة أمراض مجتمع معين، من مختلف جوانبه الاقتصادية والسياسية... فإننا في الواقع ندرس "أمراض "الأنا" في هذا المجتمع وهي الأمراض التي تتجلى في فاعلية شبكته الاجتماعية، هذه العقدة تسببت في فساد مجتمعات عديدة، "وكل علاقة فاسدة بين الأفراد تولد فيما بينهم عقدا كفيلة بأن تحبط أعمالهم الجماعية، إما بتصعيبها أو باستحالتها"(صالح بوعزة، 2015، ص 297-298). فلا يمكن أن نتصور مجتمع متطور لا يسوده التعاون والعمل الجماعي بين أفراده، فإذا طغت النزعة الفردية بين أفراد المجتمعات الإسلامية، وكان فيه تسبيق المصلحة الشخصية على المصلحة العامة فإن التنمية لن تتحقق، فتنمية البلدان تتحقق فقط عندا يكون هناك عمل جماعي وعلاقات متماسكة، وتكامل وظيفي بين الأفراد والمؤسسات والقطاعات الاجتماعية المختلفة، وهذا ما ينقص المجتمعات الإسلامية خاصة في ظل غياب التخطيط الإستراتيجي الشامل.

3- الخلل الموجود في العوالم الثلاث (الأشياء- الأشخاص - الأفكار): يرى بن نبي أن هذه الصعوبات والمشكلات الاجتماعية – بما فيها أزمة التنمية - مردها إلى الفرد المثقف (عالم الأفكار) والمرتبط أساسا بالثقافة والعامل ورجل المصنع (عالم الأشياء) والمرتبط بالسياسة، وذلك حينما نتحدث إلى السياسيين، فالقضية منوطة أولا بالثقافة التي تكون عالم الأفكار وتحدد علاقتنا به، وبالسياسة التي تكون عالم الأشياء وتحدد علاقتنا به، و الجدير بالذكر هنا أن الثقافة بما تقوم به من توجيه للطاقات الفردية تعمل على تحقيق بناء الفرد في الداخل بالنسبة إلى مصلحته، ولتحقيق مكانه في المجتمع بانسجام تلك المصلحة مع مصلحة المجتمع، أما السياسة فهي توجيه للطاقات الاجتماعية لتحقيق بناء المجتمع في الداخل وتحقيق مكانه في الخارج، فالفرد الصالح حينما يشارك في بناء المجتمع، فان عمله هنا يعود إليه في صورة ضمانات اجتماعية تكفل له طاقاته الفردية، فهناك تكامل بين السياسة والثقافة(صالح بوعزة، 2015، ص 310)

ولا يتحقق هذا التوفيق والتكامل إلا عن طريق الفرد كونه موجها للطاقات الاجتماعية، وبالتالي فإن مصدر المشكلات والصعوبات هو تكوين الفرد (عالم الأشخاص) والإنسان لا يتغير بوصفه كائنا حيا في حدود التاريخ، وإنما يتغير بوصفه كائنا اجتماعيا تغيره الظروف، وحسب- مالك بن نبي – فانه يجب على العالم أن ينظر إلى المشاكل الاجتماعية من زاوية الفعالية والمنطق العملي وليس يعني هذا أن نغفل الجوانب الروحية في الإنسان(صالح بوعزة، 2015، ص 310-311). إن ما يعاب على المجتمعات الإسلامية هو محاولتها تحقيق التنمية من دون الاهتمام بالأفراد بشكل أساسي، فالتنمية عبارة عن عملية بناء تبدأ من القاعدة المتمثلة في بناء الأفراد وتكوينهم،

أي أن يكون الإصلاح على المستوى الميكروسوسيولوجي، بدل أن تكون الإصلاحات والتخطيطات الاجتماعية على المستوى الماكروسوسيولوجي، أي على مستوى المؤسسات والهياكل والأنساق، فإن عدم الاهتمام بالمورد البشري وتكوينه من الناحية الثقافية والفكرية والمعرفية، يجعل المجتمعات الإسلامية حبيسة استعارة النماذج التنموية الغربية، والاعتماد في تجسيدها والتخطيط لها من قبل أفراد غرباء عن البيئة الاجتماعية الإسلامية.

إن الواقع الاجتماعي الإسلامي يزخر بالعقول المفكرة والمبدعة، لكنها لا تلقى اهتماما وتشجيعا من الدولة، كما ولا تعطى لها فرصة إثبات ذاتها في المشاريع التنموية المختلفة، في المقابل نجد الكثير من العقول المهاجرة الإسلامية التي أثبتت ذاتها في الدول الغربية، والشركات العالمية القوية في المجالات المختلفة، وحتى لا نبتعد كثيرا فإن العالم الذي نخصه بالحديث في هذا المقال - مالك بن نبي - يعتبر عالم وأحد العقول المفكرة، ذات الإسهام القيم في مجال التنمية والحضارة، والذي يشهد له العالم، لكنه غريب بين أهله، ولا تتخذه الدول الإسلامية مرجعا للوقوف بنفسها من جديد. وبالتالي لا تستطيع المجتمعات الإسلامية بناء عالم الأشياء بنفسها، دون رعاية وتكوين عالم الأشخاص، والاستثمار فيهم بما يخدم المجتمع، ويحقق التنمية في الأخير.

4- التكديس: إن التكديس ظاهرة اجتماعية تظهر في المجتمعات في مراحل تخلفها، لأنها في هذه المرحلة لا تفكر ولا تنظم أعمالها طبقا لأفكار وقوانين، وإنما تكدس الأشياء، والمجتمعات التي دخلت في مراحل التخلف الحضاري، تختل الموازين عندها، فتسيطر الأشياء على الإنسان، وينزلق الإنسان نحو الشهوات، ويغرق بذلك المجتمع في فوضى الأشياء والتكديس(ميهوب العابد، 2012، ص 144). إذا حاولنا ربط عامل التكديس بعامل شيوع الفردانية في المجتمعات الإسلامية، فإن التكديس يصبح أمرا لابد منه، فإذا كانت المصالح الشخصية لدى الأفراد أولى من المصالح العامة للمجتمع، فإن الاجتهاد يقل، والإنجازات الفعالة تختفي، ويحل الكم محل النوع، والتكديس بدل البناء، كون الأفراد تبدأ وتنتهي اهتماماتهم في تسريع وتيرة الوصول إلى أهدافهم في امتلاك الأشياء من شهادات، مراكز، سيارات، منازل... ، ولا يهمهم كيف السبيل إلى ذلك، بل المهم أن تتحقق أهدافهم، وما يساعد على ذلك هو المجتمع الذي لا يهتم بالعقول المفكرة والكفاءات الحقيقية.

ويرى مالك بن نبي في مثال له عن الجزائر كبلد مسلم بقوله أنه لو قارنا نتائج سير مجتمعنا بسير المجتمع الياباني، الذي عانى من ويلات الاستعمار أيضا، فإن الغريب أن هذا المجتمع الذي نهض بعدنا بعشر سنوات قد سار إلى الحضارة ووصل إليها، وأصبح خلال أربعين سنة دولة قوية، بينما إذا وازنا إنتاجنا الحضاري بإنتاج اليابان فإنه لا مجال للمقارنة، ويبرر مالك بن نبي ذلك بأن القانون الذي طبقه المجتمع الياباني في سيره ليس هو القانون الذي طبقناه في سيرنا.

فبينما خطط المجتمع الياباني تخطيطا علميا وفنيا في سيره للحضارة، وقام ببناء مجتمع متحضر، أي أنه دخل الأشياء من أبوابها، وطلب الأشياء بوصفها حاجة، ودرس الحضارة الغربية بالنسبة

لحاجاته وليس شهواته، فلم يصبح من زبائن الحضارة الغربية يدفع أمواله وأخلاقه لها، بينما نحن فقد أخذنا منها كل رذيلة، وأحيانا نأخذ منها بعض الأشياء الطيبة.

فيرى مالك بن نبي بأن مجتمعات تميل إلى التكديس ويظهر ذلك في تناسخ الأفكار دون إنتاج جديد، أو جديد نافع، فالتكديس لا يعطينا حلولا وإنما فقط تعطينا تلميحات لقضايا جزئية معينة، وهذا ليس بالحل الصحيح الذي يقتلع المرض من جذوره (مالك بن نبي، تأملات، 2002، ص ص 166-167). فالمجتمعات الإسلامية لم تستطع تحقيق التنمية، وذلك لأنها لم تعتمد على التخطيط العلمي في بناء نفسها، بل اقتصرت جهودها في استعارة النماذج التنموية الغربية، دون مراعاة خصوصية بيئتها الاجتماعية والثقافية من جهة، ودون مراعاة أن استعارة أشياء الحضارة لا تعني أن الدول متحضرة من جهة أخرى، كما ولا تركز المجتمعات الإسلامية على جوهر المشكلات التنموية والعوامل الداخلية والخارجية المتدخلة في ظهور تلك الأزمات، بل دائما تهتم بالقشور وتعطي حلولا سطحية، وإصلاحات ترقيعية فقط.

كما يرى بن نبي من ناحية الكيف أن الحضارة لا يمكن أن تبيع جملة واحدة الأشياء التي تنتجها، أي أنها لا يمكن أن تبيعنا روحها وأفكارها وثرواتها الذاتية، وأذواقها، هذا الحشد من الأفكار والمعاني التي لا يمكن لمسها، ونجدها في الكتب والمؤسسات، ولكن بدونها تصبح كل الأشياء التي تبيعنا إياها فارغة، دون روح، وبغير هدف. أما من الناحية الكمية فلن تكون لدينا القدرة على أن نشتري العدد الهائل من الأشياء التي تصنعها، لأنه لن نجد رأس المال الذي ندفعه فيها، وإن توفر المال فهو لا يعتبر حضارة بل تكديس لأشياء الحضارة فقط (مالك بن نبي، شروط النهضة، 1986، ص 43)، ففي ظل التطور العلمي والعالمي المتسارع، يجعل المجتمعات الإسلامية بعيدة كل البعد من الدخول في التنافس مع الدول المتقدة، ومجاراتها في منجزاتها، بل تكتفي المجتمعات الإسلامية باقتناء أحدث إصداراتها واختراعاتها لمحاولة مسايرة تطورات العصر، لكن تبقى المجتمعات الإسلامية مجرد تابعة ومستهلكة، طالما لم تعتمد على نفسها في صناعة نفسها وأشيائها، كما ويظهر أن الدول الغنية من المجتمعات الإسلامية يمكنها اقتناء منتجات الحضارة، بينما المجتمعات الفقيرة منها لا يمكنها ذلك، فالأمر يتوقف على مدى امتلاك رأس المال المادي فقط لا غير، لكن تبقى المجتمعات الإسلامية الغنية في إطار التكديس وليس البناء، طالما تستورد أشيائها من العالم الغربي، ولا تنتجها بنفسها.

5- غياب الفاعلية: ويرى مالك بن نبي بهذا الخصوص أن المجتمع الإسلامي ينقصه المنطق العملي، ويعتبره أمرا متوقعا، لأن العجز في الأفكار، يخلق أو ينتج في المجال النفسي عجزا في المراقبة الذاتية، وفي مراجعة النتائج، ففكرنا لا يقيم علاقات بين النشاطات والجهود والوسائل من ناحية، ونتائجها من ناحية أخرى، وباعتبار أن المجتمع البشري عبارة عن جهاز تحويل الطاقات الاجتماعية، فإن هذا الجهاز بقدر ما يكون أكثر جودة، بقدر ما تكون نتائجه أفضل، فالطاقات الاجتماعية ترضخ لقوانين النسق الاقتصادي بالخصوص، والذي يحتم أن يكون الإنتاج متفوقا على الاستهلاك دائما(مالك بن نبي، فكرة كامنلوث، 2000، ص ص 59-60). وواقع المجتمعات الإسلامية يظهر قصورا واضحا في الإنتاج وهذا طبعا كمبرر لميل هذه المجتمعات نفسها إلى

اللجوء إلى الاستيراد وتكديس منتجات الحضارة الغربية، وبطبيعة الحال فإن ضعف الإنتاج يمكن رده إلى سوء التخطيط والتسيير الذي يرتبط بشكل واضح بعالم الأشخاص والأفكار فإذا كان هناك عجز في هاتين الأخيرتين فكيف نتصور أن يكون الإنتاج في مختلف الخطط المطبقة والأعمال المنجزة، فالمنطق العملي يحتم أن تقوم النشاطات في المجتمع الإسلامي، وفق منطق عقلاني تتصف نتائجه بأن تكون العوائد أضعاف الخسائر، وأن يكون الإنتاج أضعاف الاستهلاك.

ويرى مالك بن نبي أنه بتحليلنا لبعض النشاطات النموذجية في المجتمع الإسلامي، فإننا نلاحظ أن التبديد هو الغالب في الكثير من الأحيان على العوائد والمحصول، وهو مظهر من مظاهر اللافاعلية التي تعزى إلى العجز في أفكارنا، وهذا العجز يمنح تبريرات خاطئة، حيث أن الأفراد يفسرون محدودية النتائج لا بسببها الحقيقي المتمثل في التبديد، بل بسبب ثانوي وهو الفقر. وهنا يرى مالك بن نبي أننا لا نعاني اللافاعلية فحسب، بل ونخترع ترهات لتبرير عدم فاعليتنا(مالك بن نبي، فكرة كامنلوث، 2000، ص ص 61-62). فتبريرات الأزمة التنموية في المجتمعات الإسلامية لا ترد إلى مصدرها الحقيقي، بل تقدم في ذلك تبريرات شكلية، وكما يقال إذا عرف السبب بطل العجب، وهذا هو الذي يجعل المجتمعات الإسلامية حبيسة الأزمة التنموية، فهي لا تقف على جوهر المشكلات ولا على جوهر عواملها.

ويرى مالك بن نبي أن المجتمع المتخلف ليس موسوما حتما بنقص الوسائل المادية والأشياء، وإنما بافتقار الأفكار، ويتجلى بصفة خاصة في طريقة استخدامه للوسائل المتوفرة لديه، بقدر متفاوت من الفعالية، وفي عجزه عن إيجاد غيرها، وعلى الأخص في أسلوبه في طرح مشاكله أو عدم طرحها على الإطلاق، عندما يتخلى عن أي رغبة ولو مترددة بالتصدي لها (مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 2002، ص 26)، وقد حدد مالك بن نبي شكلين من الأمراض النفسية التي تجتمع في المجتمع الإسلامي، والمتمثلة في ميل المسلم في تقويمه للأشياء إما للغلو فيها أو للحط من قيمتها، ويتمثل هذا في نوعين من الأمراض، فإما أن الأمور سهلة جدا ولا تحتاج إلى تعب، وكذا إلى فكر والحل بسيط، وإما أن الأمور مستحيلة، وهي كالتالي:

أ: مرض السهولة: وأبرز مثال على عقدة (السهولة): قضية فلسطين، فقد قيل: إن إخراج اليهود سيتحقق بعد أشهر، ولو نفخنا عليهم نفخة واحدة لطاروا، ولكنهم في الحقيقة لم يطيروا، وهناك من يظن أنه بخطبة رنانة تحل مشاكل المسلمين، وبعضهم يكره أن تدعوه إلى تفكير عميق في موضوع ما من الموضوعات لأنه يميل إلى السهولة ويكتفي بتفسير سطحي، وعندما تخطط السياسة طبقا لمبدأ السهولة فإنها سوف تجتذب إليها الناس ممن يقدرون الأشياء بناء على سهولات الحاضر لا على صعوبات المستقبل (صالح بوعزة، 2015، ص 207). فشيوع مرض السهولة بين أفراد المجتمعات المسلمة يجعلها لا تبذل الجهد الكافي للخروج من أزمتها التنموية، فلا يمكن أن نتصور أي تنمية دون أن تكون فيها مشقة وجهد بشري، وخسائر مادية، والوقت المطلوب، فأي تخطيط إستراتيجي يتطلب الفاعلية والنشاط والوقت والمال حتى يمكن من خلاله تحقيق الأهداف المنشودة منه.

ب: مرض الاستحالة: وقد يحدث العكس، فيرى المسلم أن الأمور مستحيلة ويقف أمامها عاجزا، وهي في الحقيقة غير مستحيلة ولكنه يضخمها عمدا حتى لا يتعب نفسه في الحل، وقد تجد اليوم بعض المسلمين الذين ينتظرون معجزة الرجل الوحيد كأن يأتي صلاح الدين آخر ليوحد شتات المسلمين من جديد ويعتقدون استحالة أية محاولة لاستئناف حياة إسلامية.(فازية بوثلجة، 2019، ص 61). إن مرض الاستحالة قد يكون مرده إلى عامل القابلية الاستعمار الذي سبق وتطرقنا إليه، والذي يجعل الفرد المسلم عاجزا عن الإنتاج، ويتقبل ويخضع للوضع المزري الذي يعيشه، فهو متشبع بثقافة اليأس والعجز، ومولع بالآخر الغربي، وبإنجازاته، فيكتفي بالتقليد والاستهلاك، بدل الإنتاج. إن عقدة الاستحالة إنما هي قناعات داخلية تثبط من عزيمة المجتمعات الإسلامية، وتضعف نشاطاتها، وتفقد ثقتها في نفسها وفي أفكارها، وهذا يعتبر مبررا كافي لجعل المجتمعات المسلمة تبقى حبيسة أزمتها التنموية.

فالمسلم في هذه الحالة يواجه عقدة نفسية، ساهم مالك بن نبي في تخليصه من هذه العقدة التي تجعل المرء يعزو تأخر حركة النهضة والنمو في مجتمعاتنا العربية إلى صعوبات في طبيعة هذه مشكلات، عوضا أن يعزوها إلى نفسه من الناحية العقلية في إدراكه لهذه المشكلات، ومن الناحية الأخلاقية في سلوكه إزاءها(صالح بوعزة، 2015، ص 308). فالتغيير الاجتماعي ينبغي أن يبدأ من الأفراد، ويظهر أن أفراد المجتمعات الإسلامية يعزون مشكلاتهم ويلقونها على عوامل خارجية بيئية وطبيعية، دون ردها لأنفسهم، باعتبار أن لهم دخل في ظهورها أو لهم دور في تفاقمها. فتبرير الأشياء بغير مبرراتها أو التهرب من تحمل مسؤوليتها لن يعطي حلولا حقيقية لمواجهة جوهر مشكلة التنمية في المجتمعات الإسلامية.

المحور الثالث: الحلول المقترحة لمواجهة أزمة التنمية في العالم الإسلامي عند مالك بن نبي: بناء على تحليل مالك بن نبي لواقع الأزمة التنموية في المجتمعات الإسلامية، فقد قام باقتراح جملة من الأفكار والحلول الكفيلة بإخراج العالم الإسلامي من هذه الأزمة بمختلف أبعادها ومجالاتها، وبما يضمن تحقيق التنمية الشاملة في الأخير، وتتمثل أهم اقتراحاته في التالي:

1- الاستثمار في العنصر البشري: انطلاقا من أن بناء الحضارة يبدأ من الإنسان (المورد البشري)، فقد جعل منه مالك بن نبي القيمة الاقتصادية الأولى بوصفه وسيلة تتحقق خطة التنمية، ونقطة تلتقي عندها كل الخطوط الرئيسية في البرامج، فالإنسان هو الذي يحدد القيمة الاجتماعية لكل الوسائل الموجودة المعروضة للإنجاز تحت يديه (صبرينة حديدان، 2019، ص 33).

فالقضية إذن بالنسبة للدول النامية ليست قضية إمكان مالي وإنما قضية تعبئة للطاقة الاجتماعية تحركها إرادة حضارية، فمالك بن نبي توصل إلى أن الإمكان الاجتماعي هو الذي يحد مصير الشعوب والدول، كما لاحظ أن التنمية في هذه الدول تعثرت لأنها رسمت خطط التنمية على أساس الاستثمار المالي، بينما تقدمت الصين اقتصاديا لأنها طبقت مبدأ الاعتماد على الذات أي الاستثمار الاجتماعي، هذا الاستثمار الاجتماعي يمكن أن يعوض النقص في الاستثمار المالي في البلدان النامية وهذا ما نجده في تجربة الصين بحيث استثمرت من الناتج الوطني الخام واعتمدت

على الاستثمار الاجتماعي وجعلها في ذلك تجربة رائدة في كيفية توظيف الإنسان والتراب والزمن، كما يمكن أن نستفيد من هذه التجربة درسا تربويا لأن الإنسان الذي يمارس العمل المشترك يدرك من خلاله ما يتحقق على يده في المزرعة والمجتمع، والعالم النامي لا يمكنه تغيير أوضاعه الاقتصادية إلا بقدر ما يطبق خططا اقتصادية تتفق مع أبعاده النفسية، ويمكن أن تحقق النهضة الاقتصادية هذا الجانب التربوي الذي يجعل من الإنسان القيمة الاقتصادية الأولى، بوصفه الوسيلة التي يمكن من خلالها تحقيق الحركية الاقتصادية وخطط التنمية، بالإضافة أنه يجب على الدول النامية في المجال الاقتصادي أن تكون أفكارها متطابقة مع واقعها ولا يكفي أن نتكلم عن الاستثمار الاجتماعي وفي البرامج الاستثمارية نعتمد على الاستثمار المالي (شعيب شنوف، 2010، ص ص 20-21). فالاستثمار في العنصر البشري يعد أهم أنواع الاستثمارات لأنه يعتبر من الأساسيات التنموية التي لا يزول نفعها على المدى البعيد، فالتخطيط الذي يشمل ويركز على العنصر البشري واليد العاملة المؤهلة يشكل قوة اقتصادية للدول تجعلها دولة منتجة تنافس الأسواق العالمية بمنتجاتها وإبداعاتها، ولا يتأتى الاستثمار في المورد البشري إلا من خلال نظام تربوي مخطط وهادف واستراتيجي، يتم من خلاله تكوين أفراد المجتمعات الإسلامية وتدريبها على المهارات اللازمة والمطلوبة لسوق العمل، فصناعة عالم الأشخاص يعتبر الانطلاقة الأساسية التي تمكن العالم الإسلامي من صناعة عالم الأشياء.

2- البناء بدل التكديس: وحتى يتجه العالم الإسلامي نحو البناء بدل التكديس ينبغي أن يكون ذلك من خلال:

أ- استثمار الثروة: وقد تطرق الاقتصاديون إلى هذا المشكل وخصوصا فيما يخص شروط التخطيط في اقتصاد السوق، فالبلدان النامية يمكن أن تستثمر بقدر الوسائل المتاحة والمتمثلة في القطاع الفلاحي والمواد الأولية الخام ورأس المال الاجتماعي، هذا الرصيد الاقتصادي لبلدان القارة الجنوبية، وكل قرض أو مساعدة من القارة الشمالية - محور الصناعة - لا يمكن أن تكون قاعدة يقوم على أساسها التخطيط، فالأمر يخص تحريك المال وتنشيطه من العمل والاستثمار وليس تكديس الثروة، فالمشكل متعلق بالمنهج الذي يحدد دور المال من أجل بناء الحياة الاقتصادية في إطار طابع شمولي وعادل لا في طابع إقطاعي وبذلك يكتمل توجيه رأس المال مع توجيه العمل لتحقيق الشروط الضرورية للإقلاع الاقتصادي، عن طريق التخطيط الدقيق (شعيب شنوف، 2010، ص 23). فنجد الكثير من الدول الإسلامية الغنية بالثروات الطبيعية، والتي ترجع عليها بالعوائد المالية، فثروتها محصورة بما تملك من ثروات طبيعية، وليس استثمارا في القطاعات الاقتصادية والاجتماعية المختلفة، ولا يمكن اعتبار هذه الثروة التي تغيب فيها الاستثمارات الاقتصادية والاجتماعية سوى مجرد تكديس للثروة لا غير.

فربط قضية العمل بقضية المال أصبحت تشكل عائقا أمام القيام بمشاريع استثمارية، لأن العمل مقيد بشروط مالية، فالمال مهيمن على تسخير العمل، ولم تتغير هذه الشروط إلا فيما يخص ملكية رأس المال، ولم تحاول هذه البلدان النامية البحث عن دور المال الأساسي، هذه العلاقات كانت ولا زالت منذ ظهور اقتصاد التبادل، وأصبح من الضروري البحث عن وسيلة لتسيير عملية

التبادل وتقرر اختيار الذهب والفضة ونشأ المال ليقوم بدورين، فالدور الأول يتفرع عن عملية التوزيع بل عن عملية الإنتاج بحيث كان المنتج يقوم بعملية توفير أو تخزين جزء من عمله لمواجهة الحاجة المستقبلية الطارئة، ومهما كان سواء الذهب أو الفضة كان وسيلة لاختزان العمل أي أصبح المال مخزنا تماما كما تخزن الكهرباء، فيما يسمى بالمدخرات وهذا الجزء المخزن هو فائض العمل الحاجيات الضرورية (شعيب شنوف، 2010، ص ص 18-19). فإن التنمية في المجتمعات الإسلامية ينبغي أن تنطلق من الداخل، وذلك من خلال توسيع نطاق الاستثمارات بمختلف أشكالها، فالاستثمار في العنصر البشري الذي يكد في العمل ويسعى لتحقيق الجودة في الإنتاج، يتطلب الوسائل اللازمة وبيئة عمل مناسبة، وكل هذا لا يكون إلا من خلال وجود رأس المال المادي، فالمال والعمل يسيران في خطين متوازين، ولا يمكن أن تتحقق التنمية في العالم الإسلامي إذا أختل أحد هذين الشرطين، فلا يمكن أن نستثمر دون وجود رأس مال مادي، كما لا يمكن أن نجسد المشاريع دون عمل ونشاط.

ب- استثمار الأفكار: يرى مالك بن نبي أنه إذا ما تساءلنا بأي شيء أنهض الإنسان الألماني وضعية بلاده؟ نكون ملزمين بالجواب عن سؤالنا هذا بطريقة واحدة لا غير، وهي أن أفكاره فحسب، هي التي أتاحت له أن يحقق هذا النهوض، خاصة وأن حرب 1939- 1945، قد خربت عمليا عالم الأشياء بألمانيا، المصانع، المناجم، البنوك، المختبرات، فكل هذه الأشياء كانت قد دمرت وأتلفت.

وبالتالي لم تكن ألمانيا بعد سنة 1945 تمتلك أي مجموعة من الأشياء، ولكن تمتلك مجموعة من الأفكار، وقد كونت من خلال هذا الرأسمال كل حياتها الاجتماعية، واحتلت مجددا مكانتها السياسية في العالم. وتجربتها بالنسبة لنا تتيح أن نستخلص بطرقة علمية، أن قيمة المجتمع لا يعبر عنها بأشيائه بل بمجموعة أفكاره.(مالك بن نبي، فكرة كمنويلث، 2000، ص 53)، وهنا يرى مالك بن نبي أنه علينا أن نكتسب خبرتنا، أي أن نحدد نحن موضوعات تأملنا وألا نسلم بأن تحدد لنا، أي علينا أن نستعيد أصالتنا الفكرية، واستقلالنا في ميدان الأفكار حتى نحقق بذلك استقلالنا الاقتصادي والسياسي، فالمجتمع الذي لا يصنع أفكاره لا يمكنه على أي حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه، ولا يمكن لمجتمع أن يتشيد بالأفكار المستوردة من الخارج (مالك بن نبي، القضايا الكبرى، 2002، ص 198)، إن عالم الأشخاص وعالم الأفكار وجهان لعملة واحدة عندما نتكلم عن الاستثمار في العنصر البشري، فالموارد البشرية تتميز بالتفكير الإبداعي، والقدرات المتميزة من الناحية العقلية والعملية، ولا يعتبر عالم الأشياء التي نوفرها لهؤلاء الأفراد سوى بيئة تحفيزية تتيح لهم الإبداع وتجسيد أفكارهم، وعليه ينبغي على المجتمعات الإسلامية أن تهتم بشكل أكبر بعلمائها ومبدعيها بما يتيح الاستثمار الأفضل في أفكارهم ومهاراتهم، حتى يمكن للمجتمعات المسلمة من أن تتخلص من أزمة التنمية، وتتمكن من السير في طريق الحضارة من جديد.

3- الالتزام بنظرية الاقتصاد الإسلامي: إن النظرية الاقتصادية الإسلامية تقوم على أساس من القيم الروحية والإنسانية وعلى مبادئ اجتماعية تعاونية مثل الإيمان، الحب، التعاون، الإخاء

والمساواة، فالحرية الاقتصادية أساسها اعتبار خدمة الإنسان وخدمة المجتمع عن طريق استثمار المال في كل مشروع مفيد حلال، غايتها نشر الرخاء في الأرض بين الناس والقضاء على الفقر حتى لا يبقى فقير جائع ولا بائس محتاج على وجه الأرض.

إن الاقتصاد الإسلامي اقتصاد إنساني النزعة، نبيل الهدف في غاياته وجوهره، وهو اقتصاد يقود المجتمع إلى التكامل والإيثار والخير والمسؤولية وتقرير الحقوق والالتزامات بين الناس، لكن الفرق واضح بين أسس الاقتصاد الإسلامي وبين واقع المسلمين، فليس من قبيل المبالغة إذا أكدنا أنه لا يوجد اليوم في العالم الإسلامي بلد متقدم. بالتأكيد هنا كبلاد غنية ولكن ليس ناتجا عن مجهود إبداعي أو إنتاجي، كذلك الذي نراه في بلدان آسيا الجنوبية الشرقية، أو كنتيجة نمو منتظم كذلك الذي يعيشها اليابان منذ قرون من الزمان. (سليمان ملوكي، 2013، ص 124). إن من شروط التخطيط أن يكون متوافقا مع البيئة الاجتماعية والثقافية لأي مجتمع، وباعتبار المجتمعات الإسلامية دينها الإسلام فكان الأجدر لها أن تتقيد بنظرية الاقتصاد الإسلامي، أولا لأنها تنسجم وخصوصية المجتمعات الإسلامية، ثانيا لما تتميز به من إيجابيات عكس النظريات الاقتصادية الأخرى، فلا ينبغي على المجتمعات الإسلامية أن تبقى رهينة النظريات الاقتصادية الغربية، فحتى التجربة لم تثبت أهميتها على المستوى المحلي في المجتمعات المسلمة، ولم نرى أي نهضة تنموية، بل ما زالت الدول الإسلامية تتخبط في أزماتها التنموية.

وإن من عدم الفعالية أن يحمل المسلم أفكارا صحيحة لكنه لا يستطيع تطبيقها في دنيا الواقع، فالمسلم يحمل القرآن ولكنه لا يستفيد منه كثيرا في التخطيط لنهضة قادمة، فعقلية ما بعد الموحدين تشله عن الإبداع، فهناك خلل في طريقة تفكيره، فعندما اكتشف ابن النفيس الدورة الدموية لم يستفد منها المجتمع الإسلامي لأنه لم يكن على المستوى الثقافي الذي يحيط هذا الاختراع بالرعاية، والمشكلة أن مجتمع ما بعد التحضر يسير إلى الخلف بعد أن انحرف عن طريق حضارته وانقطعت صلته بها(صالح بوعزة، 2015، ص ص 300- 301). نعم إن الدول الإسلامية توقن بأن القرآن ليس مجرد كتاب بل هو نهج للحياة بكل مناحيها، لكن المجتمعات المسلمة لا تسعى لفهمه فهما معمقا، ولا تسعى للاستفادة منه، فمن خلاله يمكن أن نحصل على كل الأجوبة التي نريد، وعن طريقه يمكن بناء مجتمع مستقر، مجتمع متقدم ومتحضر، وهذا ما كانت عليه الحضارة الإسلامية سابقا عندما كانت تستند على القرآن وتوجيهاته في كل الموضوعات الحياتية المختلفة.

بالإضافة إلى أن التزام المجتمع حسب بن نبي بالفكرة الدينية، والالتزام بالقواعد الدينية الإسلامية، فيواصل المجتمع الذي أخرجته الفكرة الدينية إلى النور تطوره ورقيه، وتكتمل شبكة روابطه الداخلية، بقدر إشعاع هذه الفكرة في العالم، ويرى بن نبي أنه باختفاء سلطة الفكرة الدينية ستشرع الغرائز في التحرر، لأن العقل لا يملك سلطة الروح على الغرائز، وبغلبة الغرائز على المجتمع تؤدي إلى تخلف المجتمع وانحطاطه(مالك بن نبي، شروط النهضة، 1986، ص ص 68- 69)، فكلما سادت الأخلاق الروحية في المجتمعات الإسلامية، وزاد الالتزام بها عن قناعة داخلية، كلما زادت قوة الضبط الذاتي للأفراد، فيلتزمون بالأخلاق المهنية، وإتقان العمل...و...

وكل الأمور التي يفرضها الإسلام على عباده، كلما سار المجتمع نحو النظام، والإنتاج، وساهم ذلك في تحقيق التنمية في النهاية.

4- ربط الفاعلية بالمنطق العملي: إن الدراسات التنظيمية الحديثة تركز على الفاعلية باعتبارها قيمة من القيم التنظيمية. وتعرف عموما على أنها: " القدرة على تحقيق الأهداف والتكيف مع البيئة بصورة تضمن النمو والتطور والاستمرار". وقد اهتم مالك بن نبي بفكرة الفاعلية اهتماما كبيرا، مبرزا أن تحقق الفاعلية في التاريخ الماضي والمستقبل المأمول هو نتاج معادلة اجتماعية- ثقافية تدفع بالإنسان (إنسان الحضارة) أن يتحرك عبر التاريخ مولدا نتائج تعود بالنفع على الفرد وعلى المجتمع. فقضية الفاعلية ترتبط ارتباطا وثيقا بالمنطق العملي، الذي جعل منها محكا للتمييز بين الصحة والصلاحية (سليمان ملوكي، 2013، ص 125)، فحتى تتمكن المجتمعات الإسلامية من الخروج من أزمة التنمية عليها تفعيل مبدأ الفاعلية، التي تمكنها من التأقلم مع المتغيرات الجديدة، فتكون مرنة وسهلة التكيف مع كل جديد، ويتجسد ذلك بشكل واضح من خلال التطبيق العملي لها، أي أن الفاعلية يظهر نفعها أكثر من خلال العمل والنشاط الفعلي، الذي يمكن من خلاله قياس مدى صلاحيتها.

وهو يرى أن أي مخطط نفكر فيه بأفكار الآخرين ونحاول انجازه بوسائل غيرهم معرض للفشل من الناحية العملية، وعليه فهو يقول بهذا الخصوص: "وعمليا يجب أن تسير النظرية الاقتصادية جنبا إلى جنب مع الظروف الاجتماعية، إذ لا أثر لهذه النظرية الاقتصادية إلا اتفقت مع تجربة اجتماعية معينة، ويقصد مالك بن نبي بالتجربة الاجتماعية المعينة كل خصوصية حضارية لأي أمة من الأمم، ويقدم الدليل على ذلك بما حصل لاندونيسيا التي تعد من أغنى بلاد الله، لكنها لم تقدر على الخروج من أزمتها الاقتصادية رغم أن واضع نظرية إقلاعها الاقتصادي كان أحد أكبر الاقتصاديين الألمان الذين قدموا عصارة خبرتهم الاقتصادية لألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى، وهنا فإنه حسب مالك بن نبي فإن التجربة كانت ناجحة في ألمانيا لوجود مهندسها الدكتور Chakht، ولكنها فاشلة لأن الدولة هي اندونيسيا والشعب غير الشعب الألماني (سليماني ملوكي، 2013، ص 125)، فمتى انعدمت العلاقة بين أفكار البشر وواقعهم الاجتماعي فقدت هذه الأفكار وظيفتها في التطبيق العملي، ولم تعد فعالة. كما ويؤكد على أنه يجب علينا أن ننطلق في العمل بالاعتماد على قدراتنا الذاتية، والإمكانات المتاحة لنا، إذ ليس من المقبول أن نستثمر ما نرغب ونريده حتى بالوسائل التي هي في يد الغير. بل علينا أن نستثمر بالوسائل الموجودة في أيدينا (صبرينة حديدان، 2019، ص 37)، فعلى الرغم من فاعلية الأفكار الغربية في بيئتها الاجتماعية، إلا أن ذلك لا يعني صلاحيتها في كل الأحوال باختلاف الزمان والمكان، بل ينبغي على المجتمعات المسلمة أن تصنع أفكارها بنفسها فهي أدرى بظروفها، وحاجاتها، وما يتناسب مع خصوصيتها الاجتماعية والثقافية، كما أن العديد من التجارب أثبتت عدم صلاحية الأفكار بمجرد تطبيقها في بيئة غير بيئتها، وهذا ما ينبغي أخذه بعين الاعتبار.

5- العمل المشترك: لعل أبرز تجسيد لهذا المبدأ عند مالك بن نبي، هو مناداته باتحاد إسلامي، وحدة لها مبرراتها الجغرافية السياسية، السيكولوجية والفنية، التي هدفها توجيه العالم الإسلامي

وجهة تحقق التطور والتفوق. وهذا ما جسّده في كتابه: "فكرة كومنولث إسلامي" ولقد أقر مالك بن نبي في هذا الكتاب بالذات، أن مثل هذا المشروع لا يمكن إنجازه بطريقة فردية، بل انطلاقا من تضافر جهود هيئات عديدة، "... فتحقيق هذا النوع، لا يمكن أن يقوم به فرد منعزل، لأنه من مهام هيئة مشتركة من الأخصائيين، الذين يتقاسمون فيما بينهم المظاهر والقطاعات المختلفة لهذه المهمة، كل في دائرة اختصاصه. وعموما، فمبدأ العمل المشترك كان واردا في معظم كتابات مالك بن نبي مؤكدا بأن:" الفرد للمجموع، والمجموع للفرد" و يرتبط العمل المشترك عنده بما تحمله الجماعة من حركة إيجابية توجهها نحو تحقيق الغايات (صبرينة حديدان، 2019، ص 38). إن موضوع التنمية في المجتمعات الإسلامية لا يتطلب محاولات فردية، على الرغم من أهمية الفرد في تحقيق التنمية، لكن التنمية الشاملة التي تنشدها المجتمعات الإسلامية تتطلب عملا مشتركا، وتكاملا وظيفيا يتجسد فعليا من خلال تعويض النقص في الأعضاء المشتركين، وإذا تحدثنا عن إتحاد إسلامي بين الدول المسلمة فهذا يعني أن يكون هناك تكامل في الجهود المبذولة للخروج من أزمة التنمية، وتكامل فيما بينها من خلال تعويض النقص، فهناك من الدول التي تملك ثروات طبيعية لكن لا تملك اليد العاملة، وهناك من تملك اليد العاملة لكن لا يتوفر لديها رأس المال للاستثمار واستغلال الموارد البشرية، ففكرة وجود إتحاد إسلامي أو عربي يجعل من الدول الإسلامية قوة تعتمد على نفسها، وتحقق اكتفاء ذاتيا، يجعلها في غنى عن استهلاك واستيراد منتجات العالم الغربي.

وبالتالي على المجتمع الإسلامي أن يأخذ بعين الاعتبار ضرورة الاستقلال الفكري عن الغير، مع الأخذ في الحسبان حدود الإمكانيات الفردية لمواجهة الضرورات الداخلية والخارجية، والأخذ بالتجارب الأخرى للمجتمعات، فنحن لا نملك شروط الاقتصاد التكاملي، أي أن نستهلك ما ننتج دون الحاجة إلى الغير، كما هو الحال في أمريكا والصين وروسيا بدرجة أقل، فمالك بن نبي يرى أنه من الواجب تنظيم حياتنا الاقتصادية، على شروط تحقيق حلقة اقتصادية كاملة داخل حدودها، التي يمكن تطبيقها في حدود الوطن الواحد صعب، لكنه تنخفض الصعوبة كل ما تتسع رقعة التطبيق (ميهوب العابد، 2012، ص 150)، إلا أن نشاط المجتمع المشترك لا يتكون في بساطة من مجرد النشاطات الفردية، حتى ولو كانت هذه الأخيرة من نفس الجنس، وحتى ولو كانت متحدة كلها في نفس الاتجاه، إذ يجب أيضا تنظيمها في كنف النشاط الإجمالي حسب مخطط تنظيمي، يتولى تحديد فعالية هذا النشاط (مالك بن نبي، القضايا الكبرى، 2000، ص 100)، إن فكرة الإتحاد الإسلامي أو العربي ليست صعبة على المستوى النظري ولا على المستوى التطبيقي، فقط هي تحتاج إلى تخطيط دقيق، وتسيير فعال، يضمن الصيرورة الجيدة، والنجاح المتوقع منها.

6- بناء شبكة العلاقات الاجتماعية: يعد بناء شبكة العلاقات الاجتماعية أول عمل تاريخي يقوم به المجتمع، إذ أن ميلاده مرهون باكتمال وتلاحم هذه الشبكة داخل النسق الاجتماعي في إطارها الاقتصادي والسياسي والثقافي. وتخضع فاعلية الأفكار في أي مجتمع لشبكة العلاقات الاجتماعية، فكلما كانت أكثر متانة بين الأفراد، كان العمل فعالا ومؤثرا (ميهوب العابد، 2012،

ص 151)، فالمجتمع عبارة عن بناء ينقسم إلى مجموعة من الأنساق، وهذه الأخيرة مقسمة إلى مجموعة من التقسيمات والتفرعات وصولا إلى الحالات الفردية، وبين كل أشكال هذه التفرعات توجد العديد من العلاقات الوظيفية المتشابكة مشكلة في النهاية ذلك الكل المتماسك الذي يعبر عن وحدة المجتمع وترابطه.

وفي كتابه ميلاد مجتمع، أكد مالك بن نبي على أن الأساس في بناء المجتمعات بطريقة سليمة هو ذلك الذي أسماه:" شبكة العلاقات الاجتماعية" التي اعتبرها ضرورية جدا لأداء العمل المشترك، إذ ربط متانة هذه الشبكة وسلامتها بفاعلية الأداء، وقدرته على التأثير، "فكلما كانت شبكة العلاقات الاجتماعية أوثق، كان العمل فعالا ومؤثرا (صبرينة حديدان، 2019، ص 38)، فينبغي أن تسير هذه العلاقات في إطار إيجابي، أي وفق ما يخدم الصالح العام، ويخدم المجتمع، فالتنمية هي في حاجة إلى هذا النوع من العلاقات، أولا لأنها ضرورة اجتماعية تفرضها الطبيعة الإنسانية، ثانيا لكون الدول المتحضرة لم تحقق تطورها وتقدمها إلا من خلال بناء قاعدة من العلاقات المتشابكة، الخاضعة إلى التسيير المنظم والمدروس والإستراتيجي، بما يتلاءم مع ما تفرضه تحديات العصر والتغير المتسارع في كل مجالات الحياة الاجتماعية.

ويستنتج مالك بن نبي فاعلية النشاط المشترك بين الأشخاص في المجتمع، والعلاقة بين هذه الشبكة وبين المجتمع، فإذا تطور مجتمع ما على أية صورة، فإن هذا التطور مسجل كما وكيف في شبكة علاقاته الاجتماعية، في صورة توتر أو ارتخاء في التوتر، أو في تفكك الشبكة نهائيا عند مرحلة أفول المجتمع (ميهوب العابد، 2012، ص 151)، فتختزل فاعلية العلاقات الاجتماعية فيما تنتجه على المستوى الكمي والكيفي في المجتمع، وبناء على هذه النتائج يمكن التنبؤ بما ستكون عليه التنمية في المجتمع، أي أن العلاقات على مستوى الأفراد والمؤسسات وفاعليتها تعتبر محددا ومعيارا لمدى سير المجتمع في طريق الصحيح للتنمية والتطور.

خاتمة

نخلص في نهاية هذا المقال إلى أن المفكر الجزائري وفيلسوف الحضارة مالك بن نبي قد قام بتشريح مفصل لواقع أزمة التنمية للعالم الإسلامي، وفق مقاربة اجتماعية تناول فيها العوامل الداخلية والخارجية المتسببة في تخلف المجتمعات الإسلامية، كما وقدم مالك بن نبي بناء على تحليله ورؤيته لواقع الأزمة التنموية في البلدان الإسلامية جملة من المقترحات الفعالة، والمناسبة لواقع مشكلات التنمية من جهة والمناسبة لخصوصيات المجتمعات المسلمة من جهة أخرى.

إن إسهامات مالك بن في مجال الحضارة ومواجهة أزمة التنمية لإنجاز معترف به، والدلالة على ذلك وجود الكثير من الدول المتقدمة التي سعت لتطبيق مقترحاته والسير على نهجه لتحقيق التنمية أمثال دولتي ماليزيا وإيران. لكن رغم أن المجتمعات الإسلامية والعربية بشكل خاص هي الأجدر بتطبيق مقترحاته، إلا أن هذا العالم الفذ وفيلسوف الحضارة لم ينال الاهتمام والتقدير الكافي في بلاده وفي العالم الإسلامي، فكيف نرضى التخبط في أزمات التنمية ومشكلات

الحضارة في عالمنا الإسلامي بينما العلاج بين أيدينا، بل ونتهافت على النماذج التنموية الغربية على الرغم من أن تجارب كثيرة قد أثبتت فشلها وعدم صلاحيتها على مجتمعاتنا الإسلامية.

ويمكن أن نوجز أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال كل ما تم طرحه في التالي:

-تتداخل العديد من العوامل الاجتماعية في بروز أزمة التنمية في العالم الإسلامي، وهذه العوامل بدورها تحتاج إلى جملة من الحلول لمواجهتها.

-إن أهم الحلول لمواجهة أزمة التنمية ينبغي أن تنطلق من خصوصية المجتمعات الإسلامية، وواقعها الاجتماعي، بل ويعتبر القرآن الكريم والسنة النبوية نهجا حقيقيا ومصدرا ينبغي أن نستقي منه كل الحلول، لأن القرآن نهج للحياة، وهذا ما نؤمن به كمجتمعات مسلمة.

-تسليط الاهتمام على المورد البشري كعنصر مهم لا ينتهي نفعه على المستوى البعيد، من خلال تكوينه معرفيا، وتدريبه مهاريا على أن يكون على قدر من المسؤولية الاجتماعية، وعلى قدر من الإبداع والتميز حتى يستطيع رفع التحدي للخروج من الأزمة التنموية.

-أن العجز والنقائص التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية تتطلب ضرورة التكتل والوحدة لسد ثغرات النقص وتحقيق الاكتفاء الذاتي من جهة، والتسريع من وتيرة التنمية ومواجهة أزماتها من جهة أخرى.

التوصيات: ومن خلال ما تقدم يمكن طرح بعض التوصيات في الآتي:

-ضرورة أن تلتزم المجتمعات الإسلامية بتشريع الدين الإسلامي دون غيره في مواجهة مشكلاتها الاجتماعية بشكل عام، وفي تحقيق تنميتها بشكل خاص، خاصة وأن أغلب مشكلاتنا المعاصرة ترتبط غالبا ببعدنا عن تعاليم الدين ومبادئ الشريعة الإسلامية.

-ضرورة الاستفادة من العلماء والمفكرين المسلمين الذين يقدمون نماذج فكرية يربطون فيها بين الأصالة والمعاصرة، دون تغليب طرف عن الآخر في مواجهة أزمة التنمية في المجتمعات الإسلامية.

-ضرورة التعريف بشخصية مالك بن نبي والاهتمام بأفكاره من خلال تنظيم ملتقيات علمية سواء على مستوى الجامعات أو غيرها من المؤسسات الرسمية الأخرى.

-ضرورة تطبيق الأفكار التنموية لمالك بن نبي، وهذا لا يكون إلا من خلال إرادة سياسية حقيقية من أصحاب القرار وأصحاب السلطة الدولية العليا.

قائمة المراجع:

1.بشير قلاتشي(2016)، الأفكار الاقتصادية عند مالك بن نبي، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، المجلد30، العدد2، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر، الجزائر.

2.سليمان ملوكي(2013)، النظرية الاقتصادية لدى مالك بن نبي، من خلال ثلاثية رأس المال، توجيه العمل، وتوجيه الوقت، مجلة العلوم الاقتصادية والتسيير والعلوم التجارية، المجلد6، العدد10، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر.

3.شعيب شنوف(2010)، التنمية الاقتصادية في البلدان النامية عند مالك بن نبي، حوار الأربعاء، المجلد1، العدد1، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، السعودية.

4.صالح بوعزة(2015)، قراءة تحليلية لمقاربة مالك بن نبي في بناء الأفراد وإصلاح المجتمعات العربية في ظل العولمة الثقافية، مجلة تنمية الموارد البشرية، المجلد6، العدد1، جامعة لمين دباغين، سطيف، الجزائر.

5.صبرينة حديدان(2019)، مقومات البناء الحضاري عند مالك بن نبي، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، المجلد8، العدد1، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر.

6.فازية بوثلجة(2019)، تشخيص القابلية للاستعمار عند مالك بن نبي وأثرها على الجانب النفسي للفرد، مجلة مشكلات الحضارة، المجلد8، العدد2، جامعة أبو قاسم سعد الله، الجزائر، الجزائر.

7.مالك بن نبي(2002)، القضايا الكبرى، دار الفكر، دمشق، سوريا.

8.مالك بن نبي(2002)، تأملات، دار الفكر، دمشق، سوريا.

9.مالك بن نبي، ترجمة: الطيب الشريف(2000)، فكرة كمنويلث إسلامي، دار الفكر، دمشق، سوريا.

10.مالك بن نبي، ترجمة: بسام بركة وأحمد شعبو(2002)، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. دار الفكر. دمشق، سوريا.

11.مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين(1986)، شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، سوريا.

12.مالك بن نبي، ترجمة:عبد الصبور شاهين(2000)، الظاهرة القرآنية، دار الفكر، دمشق، سوريا.

13.ميهوب العابد(2012)، مفهوم التنمية في فكر مالك بن نبي، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، المجلد1، العدد2، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر.

14.يوسف أزروال(2019)، ظاهرة التخلف ومسألة التنمية: دراسة في ضوء فكر مالك بن نبي، المجلة الجزائرية للأمن والتنمية، المجلد8، العدد2، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر.

15.يوسف يحياوي(2017)، مالك بن نبي: فكر يحتاج إلى تجسيد، مجلة الممارسات اللغوية، المجلد5، العدد26، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر.